

الرّمزية في الأدبين العربي والغربي

سيد أمير محمود أنوار*

غلام رضا گلچين راد**

الملخص

من البدهي المعروف أن المقصود من الأدب، الشعر والنثر، سواء كانا من نفس العرب أم من المستغربين. ولما كانت الرّمزية قد أخذت شكل مذهب أدبي معروف في الأدب الغربي بوجه عام، وفي الأدب الفرنسي بوجه خاص، كان على الدارس لهذا الموضوع، الرّمزية في الأدب العربي، أن يعرض حتما مفهوم الرّمزية الغربية. وأن يبين ما عسى أن يكون لهذا المفهوم في الأدب العربي في العصور المختلفة، إلى جانب المفهوم العربي للرّمزية. وغاية البحث تبين مظاهر الرّمزية في الأدب العربي سواء، كانت تلك المظاهر تدرج في المفهوم العربي للرّمزية، أو تنخرط في سلك المفهوم الغربي للرّمزية، وتبين أسبابها ومقاصدها وقيمتها الأدبية، وصلتها بالمظاهر الأبية الأخرى، ومكانتها بين تلك المظاهر، وما اعتراها من صعود أو هبوط في تاريخ الأدب.

الكلمات الدليلية: الرّمزية، الأدب الغربي، الأدب العربي، الشعر، النثر.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

** خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

المقدمة

المذهب الأدبي حالة نفسية، وليدة لحوادث التاريخ وملابسات الحياة، ثم دفعت هذه الحالة الشعراء والكتاب والنقاد إلى التعبير عنها، ووضع الأصول والقواعد التي يتكون من مجموعها المذهب. (مندور، ١٩٤٩م: ١٠٤ و١٠٥)

فالمذهب الأدبي لم يقصد إلى خلقه خلقاً، ولكنه ينبع من الحياة، وتعمل على إيجادها العوامل المختلفة التي تؤثر في كيان الأدباء وأمزجتهم، ومشاعرهم، وتلون الآداب، وتصبغه بما يلائمها.

وإذا أردنا أن نعرف الأسباب التي تدعو إلى ظهور المذاهب الأدبية، فعلينا أن نرجع إلى العوامل المختلفة التي تؤثر في الأدب بوجه عام. العوامل التي تؤثر في الأدب يمكن إرجاعها إلى قسمين رئيسيين: عوامل مادية وداخلية، وعوامل نفسية وخارجية، ويقصد بالعوامل الأولى كل ما يحاول رد الظواهر الاجتماعية إلى صور خارجية؛ كما يقصد بالعوامل الثانية كل ما يتصل بعلم النفس مما هو شعوري، أو غير شعوري لا يحسه الأديب إحساساً مادياً، كما يحس بكل ما يحيط به، وإنما يدفع الأديب دفعا إلى الإنتاج الذي ينتدئه صغيراً قليلاً، ويفكر فيه صغيراً قليلاً ثم يجده آخر الأمر عملاً جليلاً. (سلامة، لا تا: ٢٣٥)

وجدير بالذكر أن المذاهب الأدبية لا تتكون طفرة، وإنما تتكون بالتدرج شيئاً فشيئاً، بتأثر تلك العوامل الظاهرة والخفية، إلى أن تصل إلى دور، تتميز فيه وتصبح ذا كيان خاص، وطابع يمتاز بلون من الاستقلال. ولما أطل القرن التاسع عشر - عهد النهضة والبعث العلمي - واتصل العرب بثقافات الغرب وآداب الغربيين، بدأت المذاهب الأدبية تأخذ صورة متميزة في الأدب العربي الحديث.

الرمزية لغة واصطلاحاً عند العرب

يطلق الرمز عند العرب على:

أ. الإشارة بالشفيتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليد، أو الفم، أو اللسان.



ب. وقصر بعضهم الرمز على الشفتين. (الثعالبي، ١٩٢٧م: ٢٢٨، والقيرواني، ١٩٢٥م، ج ١: ٢١٠)

ج. ويرى بعضهم أن أصل الرمز هو الصوت الخفى الذى لا يكاد يفهم. (قدامة، ١٩٣٩م: ٤١) وأن ذلك هو ما عناه الله تعالى بقوله: «آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا». د. وقيل إنه الكلام الخفى الذى لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار كالإشارة. (القيرواني، ١٩٢٥م: ٢١٠)

هـ. وقيل إن أصله التحرك.

وكان صاحب اللسان يقصد إلى جمع بين المعانى الأربعة الأخيرة، وردها إلى معنى واحد، إذ يقول: «الرمز تصويت خفى باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إيانة صوت، إنما هو إشارة بالشفتين». (ابن منظور، لاتا: مادة رمز)

والجاحظ أول من أطنب فى الكلام عن الإشارة، فهو يرى أن الدلالة على المعانى لا تكون بالألفاظ وحدها بل تكون بالكتابة وبالإشارة. (الجاحظ، ١٩٨٤م، ج ١: ٤٩)

والجدير بالذكر أن الرمز لم يتخذ معنى اصطلاحيا إلا منذ العصر العباسى، عصر التحول الظاهر فى الحياة العربية الاجتماعية والعقلية، وعصر النهضة العلمية الأدبية. وأول من تكلم عن الرمز بالمعنى الاصطلاحى هو قدامة بن جعفر. (طبانة، لاتا: ١٠٤)

وجاء ابن الرشيق بعد قدامة، فخطا خطوة أخرى فى تحديد مفهوم الإشارة ويقول: «الإشارة فى كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه». (القيرواني، ١٩٢٥م، ج ١: ٢٠٤)

إن ابن رشيق لا يرى الرمز مرادفا للإشارة الحسية، ومن أجل ذلك جعل الرمز الأدبى نوعا من أنواع الإشارة الأدبية لا مرادفا لها. وقد خص البلاغيون المتأخرون الكناية الرامزة، بالتى ليست تعريضا، إن كانت قليلة الوسائط، ولكنها خفية. (عبدالرزاق، لاتا: ١١٣)

الرمزية كما يفهمها الغربيون

يطلق الرمز لغة عند الفرنسيين على شكل أو علامة أو أى شئ مادي له معنى اصطلاحى، كالكلب يرمز به للأمانة، والرموز التى تدلّ على العناصر الكيميائية، والعلامات التى على قطع النقود مشيرة إلى مواضع ضربها. الرمزية فى الأدب فهى حركة أدبية تميزت فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت هذه الحركة ثورة على الطبيعة البالغة الغاية فى الجمود، وعلى البرناسية المفرطة فى الوضوح.

إن المذهب الرمزي الذى اشتهر فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر كان نتيجة لعوامل عدة، منها الاجتماعى والاقتصادى، ومنها الأدبى والفنى والثقافى. ولم تتبع كل هذه العوامل من فرنسا، وإنما كان منها الخارجى والداخلى، ولعل الدخيل منها كان كثير الغالب. وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على إيجاد هذه الحركة الأدبية التى نزعته نزعة صوفية، وآمنت بالعالم المثالى فى نظر الرمزيين أكثر حقيقة من عالم الحس الذى آمن به الطبيعيون والبرناسيون. ولم يكن ذلك العلم الذى اتجه إليه الرمزيون مسيحيا بالمعنى المسيحى الدقيق. فقد كانت الروح الغالبة عليهم بعيدة عن الدين والتقيد بروحه ونصوصه.

إن جوهر الرمزية يتمثل فى الإيمان بعالم من الجمال المثالى الاعتقاد بأن هذا العالم يتسبب الوصول إليه عن طريق الفن. وما أشبه النشوات الروحية التى يحس به الناسك فى صلاته واستغراقه الدينى بتلك النشوات التى يصل إليها الشاعر بنظرته الرمزية خلال مزاولته فنه. (سلامة، لاتا: ١٤١)

لقد نزع الرمزيون نزعة صوفية، لكنها بعيدة عن الدين، وإن تشابهت الأهداف والغايات.

الرمزية فى الأدب العربى القديم

الرمزية فى الأدب الجاهلى

يرى العربى كل شئ أمام ناظره واضحا جليا، وليس بينه وبين الطبيعة حجاب، فهو



يراها قوية بينة باهرة، حرارة وضوء ورمل وسماء، ولأجل ذلك جاءت لغته ناصعة الدلالة لا لبس فيها ولا غموض، فإن التفكير البدوي كان ساذجا، وهو يميل إلى الوضوح وينفر من الغموض، والعرب في هذه البيئة الجاهلية، لم يستطيعوا أن ينظروا إلى هذا الوجود نظرة جامعة شاملة عميقة، حتى في دياناتهم وعباداتهم. ومعنى ذلك كله أن البيئة الجاهلية لم تكن صالحة للرمزية بالمفهوم الغربي. وأما الرمزية بالمفهوم العربي، فقد نبتت أول ما نبتت من الأدب الجاهلي، وتعتمد على ركنين: الإيجاز، وغير المباشرة في التعبير.

الرمزية في العصر الإسلامي

التيارات الفعالة في العصر الإسلامي وأثرها في الرمزية

يمكن أن نحصر هذه التيارات في الإسلام إذ فتح في حياة العرب صفحة جديدة،... ومن ثم جريان الرمزية في هذا العصر في مجرى قريب من مجراها في العصر الجاهلي.

القرآن والرمزية

اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية في أسمى مظاهرها وفي كلا ركنيها: الإيجاز، وغير المباشرة في التعبير. وفي القرآن الكريم ما قديتلاقى والرمزية الأوروبية نوعا ما في «شجرة الزقوم» الذي يبدو في التصوير الرمزي الغربي، ومن ذلك أيضا ما يمتاز به القرآن من اعتماد على الموسيقى والإيقاع في إثارة الأجواء المختلفة. لكن الفرق بعيد بين منهج الرمزية الغربية، وبين منهج القرآن، إن القرآن قد جمع بين الإيحاء وبين الوضوح، وخاطب العقل والشعور معا. وأما الرمزية الغربية فقد نفرت من الوضوح لأنه لا يحقق الإيحاء. ولأن الرمزيين خاطبوا الشعور فقط، وجافوا مخاطبة العقل. وأيضا تتمثل الرمزية في أحاديث رسول الله (ص) رائعة عالية.

مظاهر الرمزية في الأدب الإسلامي في الشعر والنثر

أولا في الشعر

الرمزية الأسلوبية

الإيجاز

إن الشعر العربي بطبيعته يميل إلى الإيجاز ولكننا نلاحظ أن جانبا من الشعر الإسلامي قد اتجه إلى الإطناب نوعا ما، بل إن شعر العصبية القبلية في هذا العصر قدسرت إليه أيضا هذه العدوى.

استخدام صور التعبير غير المباشر من التشبيهات والاستعارات والكنائيات لتذكرنا بالرمزية الغربية، إذ نراها وليدة مخيلة، تؤلف بين الصور المتباعدة، وتلمح العلاقات الخفية بين الأشياء، وهذه الظاهرة خاصة من خواص الرمزية الغربية. (ضيف، ١٩٥٢م: ٢٢٩)

ومع ذلك فإننا لانستطيع أن نعد أمثال هذه التشبيهات، تشبيهات رمزية تماما على النحو الأوروبي. ونحن نلمح سمة أخرى قريبة الشبه بما في الرمزية الأوروبية في شعر الرجاز، كما يعتقد الدكتور سيد نوفل، يلحظ ما في ذلك من روعة التصوير الموسيقي المبهم للمعاني، وهذا هو الهدف الأسمى للرمزية الغربية. (نوفل، ١٩٤٥م: ١٣٨)

الرمزية الموضوعية

الرمز السياسي

ومن أمثله قول عبيدالله بن قيس الرقيات في قصيدة يستعطف بها عبد الملك بن مروان:

بشر الظبي والغراب بسعدى

قال لى إن خير سعدى قريب

مرحبا بالأذى يقول الغراب

قد أنسى أن يكون منه اقتراب

وهو يرمز بسعدى هنا إلى عبد الملك، ويذكر ما كان من عفو عبد الملك عنه بعد

قتل مصعب الذي كان ابن قيس الرقيات من أتباعه. (ضيف، ١٩٥٢م: ٢٩٧ و٢٩٨)

ومن رمزيات الشعوبيين، قول إسماعيل بن يسار النسائي. (الشايب، لاتا: ١٩٢)
فاتركى الفخر يا أمام علينا واتركى الجور وانطقى بالصواب
وهو يكنى عن جنس العرب بأمامة.

ثانياً في النثر

الإيجاز

وقد كان غالباً على النثر في هذا العصر لغلبة الروح العربي، ومن مظاهر الإيجاز، التوقيعات. والتوقيعات في جملتها يتحقق فيها أحد ركني الرمزية وهو الإيجاز.

الرمزية في الأدب العباسي

فلما جاء عهد العباسيين بدأ به عهد جديد، له طابع يغاير كثيراً طابع العروبة الخالصة التي تجلت في الأزمنة السابقة. وقد كان إلى جانب الضغط الفكري في هذا العصر، لوان آخرا من الضغط كان لهما أثرهما في الرمزية، أعنى بهما الكبت السياسي، والضييق الاقتصادي. وفي ظل هذا الكبت السياسي كان لابد أن يتخذ التعبير الأدبي أحيانا شيئاً من الرمز لينجو صاحبه من الأذى، والضرر، وهكذا كان الضغط بجميع ألوانه الفكرية، والسياسية، والاقتصادية عاملاً له أثره في الرمزية في هذا العصر.
ومن الرمز الموضوعي في الشعر العباسي ثورة بعض الشعوبيين على بكاء الأطلال، فقد كانت هذه الثورة رمزا للنيل من العرب، والحط من شأنهم، والزراية على مظاهر حياتهم وعاداتهم. وقد لاحظنا الرمزية في النثر العباسي في مواضع كثيرة ككتاب كليلة ودمنة، ورسائل إخوان الصفاء، وألف ليلة وليلة، والمقامات، و...إلخ.

تاريخ الحركة الرمزية في الغرب

من الخطر أن نعد إلى تحديد الحركات الأدبية (المصدر نفسه)، وتحديد تواريخ هذه الحركات وبيان النزعة الغالبة على كل فترة من فترات التاريخ الأدبي. فقد اقترن ظهور

الحركة الرمزية بأواخر القرن التاسع عشر.

كان «بودلير» (١٨٢١-١٨٦٧م) رائد للرمزية في فرنسا، بل إن «بورا» يعد مع «فرلين» (١٨٤٤-١٨٩٦م) و«ملارمه» (١٨٤٢-١٨٩٨م) أشهر الشعراء الرمزية. إن «بودلير» قد تأثر بأدب «بو»، وبدا هذا التأثير واضحاً في ديوانه «أزاهر الشر» الذي أثر بدوره فيمن تلا «بولير» من الرمزيين. وأما «ملارمه» (١٨٤٢-١٨٩٨م) فعلى يده وصلت الرمزية إلى نهاية الشوط من التحديد والتعقيد، وإليه يرجع الفضل في طبع الرمزية بالطابع الكامل.

مكانة الرمزية بين المذاهب الأدبية الغربية

والحق أن الرمزية لم تكن إلا لونا من ألوان الرومانتيكية، ولقد كان للرومانتيكية الألمانية والإنجليزية أثر ليس بالقليل في نشأة الرمزية في فرنسا، ولم يكن «بودلير» رائد الرمزية الرومانتيكية إلا شاعرا رومانتيكيا. فقد كان الرومانتيكيون يتحدثون عن الحب، والرحيل، والسياسة، أما الرمزيون فقد توغلوا في تجربتهم داخل حقل الفن وحده، وقصروا كشفهم على نواحي الفكر والخيال. وإذا كان في الرمزية الأصلية بعض العيوب التي تمثل في عييين رئيسيين: هما التطرف في الإنطواء، والانعزال عن العالم. إن الرمزية ضرورة ما شعر الإنسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار، ولكنها تخرج عن الضرورة إلى الضرر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها «الرمز للرمز» و«الفن للفن». (العقاد، ١٩٤٧م: مقال بمجلة الكتاب)

تأثر الأدب العربي بالرمزية الغربية في العصر الحديث وأسبابه

قد أخذت الرمزية الغربية تغزو الأدب العربي في العصر الحديث، وذلك لاتصال العرب بالثقافة الغربية وبالعالم الغربي بالوسائل المختلفة. كان حكم الأتراك للبلاد العربية أكبر بلاء ابتليت به، فوصل الأدب إلى حال من الضعف، هذا على حين كانت الأمم الغربية قد سبقت إلى النهضة، وأفاقت من سبات الجهالة.



عوامل اتصال العرب بالثقافات الأجنبية

١. الاستعمار الفرنسي والإنجليزي، ٢. الإرساليات التبشيرية، ٣. الاستشراق، ٤. الهجرة إلى الأمريكيتين، ٥. البعث العلمية، ٦. الترجمة. هذه هي أهم الأسباب التي اتصلت بها الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية، أما حصر هذه الأسباب كلها فغير ميسور. واتصال العرب بالمدنية الغربية وثقافتها له آثار في حياة العامة المادية والمعنوية بوجه عام، كما أن له آثار في الأدب العربي بوجه خاص. خاصة في تقليدهم لمذاهب الأدب الأوروبي التي منها الرمزية.

الأسباب التي دعت إلى ظهور الرمزية «بالمفهوم الغربي» في الآداب العربية الحديثة

١. إن من آثار الثقافة الأجنبية في الأدب العربي تقليد الأوروبيين في مذاهبهم الأدبية ومنها الرمزية، وكان هذا التقليد عاملاً من عوامل تفسى الرمزية في الأدب العربي الحديث.

٢. الهجرة: لقد هاجر كثير من اللبنانيين إلى أمريكا، بسبب ما عانوا من الفقر والحرمان، هاجروا وأفندتهم ظمأى إلى الحرية التي فقدوها في أوطانهم. وكانت حريتهم الأدبية أبرز ألوان الحرية وثاروا على اللغة وأساليبها القديمة. وتكونت من هؤلاء القوم مدرسة رومانتيكية، فقد وجدت الرمزية العربية بدورها الأولى في الرومانتيكية المهجرية. وزعيم مدرسة المهجر ولاشك جبران خليل جبران، وقد تأثر في أدبه وفنه التصويرى بـ«بوليم بلاك» الشاعر الرسام الذي كان ينحو في شعره ورسمه منحى صوفياً رمزياً. يقول الدكتور إسماعيل أدهم: «وفي كتابات جبران ظهرت الرمزية للمرة الأولى في الأدب العربي الحديث، مختلطة بنزعة رومانتيكية تخيلية.» (أدهم، ١٩٥٢م: ٣٠)

إن الدكتور تقولا قد عرض شيئاً من مبادئ الرمزية الغربية بصدد كلامه عن التجديد في الشعر العربي. على أننا نجد الدعوة إلى الرمزية ومبادئها، أقوى وأشد عند شاعرين الحديث أمثال «بشر فارس» و«سعيد عقل».

الرمزية في الشعر العربي الحديث

إننا نجد الدعوة إلى الرمزية ومبادئها، أقوى وأشد عند شاعرين من شعراء الأدب العربي الحديث، حاولوا أن يقلدا الرمزيين الغربيين في المبادئ والإنتاج معا، هما «بشرفارس»، زعيم الرمزية في مصر و«سعيد عقل»، زعيم الأدب الرمزي في لبنان، وللأول مسرحية نثرية رمزية بعنوان «مفرق الطرق». وأيضا نجد الرمزية الأسلوبية تخطو خطوة أوسع في شعر مطران الذي كانت نزعته إلى التجديد أقوى من نزعة أنداده ومعاصريه من أمثال شوقي وحافظ. ومما يدل على ذلك من شعر مطران قصيدته «المساء» التي قالها وهو عليل بالإسكندرية، يصور خواطره وهو قابع على صخرة إلى البحر. (مطران، لاتا: ١٤٥ و١٤٦)

النتيجة

اتصل العرب بالثقافات الأجنبية والآداب الغربية بالوسائط التي ذكرناها، واقتبس من ألوان الثقافة الغربية والآداب الأجنبية. وكان من آثار ذلك كله أن استعادت الرمزية الأسلوبية العربية نضارتها، بعيدة عن التكلف والصنعة. وأيضا التقت الرمزية العربية الحديثة، برمزية أخرى غربية، اتخذت شكل مذهب أدبي في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر. والرمزية عند الغربيين مذهب، يخالف في أصوله ومبادئه الرمزية عند العرب: فهو مذهب ينزع إلى الذاتية المطلقة، وينفر من العلم الواقعي المحسوس، وينزوي عن المجتمع، ومن أجل ذلك نزع إلى الإبهام والغموض الشديد. وقد استهدف هذا المذهب غرضين أساسيين: أولهما، تلخيص الشعر من العناصر النثرية، وثانيهما، الاتصال بالعالم المثالي عن طريق الفن. والأدب العربي لم يكن بمعزل عن المجتمع وما يدور فيه من أحداث سياسية واجتماعية. ولا يعيش الرمزيون العرب في الأبراج العاجية كما يعيش فيها الرمزيون الغربيون. فقد شاع في بعض الأدب العربي الحديث كثير من مظاهر الرمزية الأوروبية في مصر بوجه خاص، وفي لبنان بوجه أخص. وحاول بعض الأدباء أن يتجه اتجاها رمزيا غريبا في القصة، والمسرحية، ونزع إلى الذاتية، وعلى أية حال

فقد لقى الأدب الرمزى الذى ينحو منحى الرمزىة الغربىة، معارضة شديدة حتى فى لبنان نفسها واستهوى فيها الأدب الرمزى فريقا كبيرا من أدبائها، وأما فى مصر فقد كانت تلك أشد وأعنف.

المصادر والمراجع

- ابن منظور. لانا. لسان العرب. لانا.
أدهم، أسماعل. ١٩٥٢م. توفىق الحكىم. مصر: طبع دار سعد.
الثعالى. ١٩٢٧م. فقه اللغة. لبنان: نشر المكتبة التجارىة.
سلامة، إبراهيم. لانا. تيارات أدبىة بىن الشرق والغرب. الطبعة الأولى. لبنان: مكتبة ناشرون.
الشابى، حمد. لانا. تاريخ الشعر السىاسى. مصر: نشر مكتبة النهضة.
ضىف، شوقى. ١٩٥٢م. التطور والتجديد فى الشعر الأموى. الطبعة الأولى. لبنان: لجنة التألىف والترجمة والنشر.
طبانة، بدوى. لانا. قدامة بن جعفر والنقد الأدبى. مصر: نشر مكتبة الأنجلو.
عبدالرزاق، على. لانا. أمالى على عبدالرزاق فى علم البىان وتارىخه. لانا.
العقاد، مقال بمجلة الكتاب يناير سنة ١٩٤٧م.
قدامة بن جعفر. ١٩٣٩م. نقد النشر. تحقيق طه حسين وعبد الحمىد العبادى. القاهرة: مطبعة مصر.
القىروانى، ابن الرشىق. ١٩٢٥م. العمدة. الطبعة الأولى. مكتبة أمىن هندىة.
مطران، خلىل. لانا. دىوان خلىل. القاهرة: دار المعارف.
مندور، محمد. ١٩٤٩م. فى الأدب والنقد. لبنان: لجنة التألىف والترجمة والنشر.
نوفل، سىد. ١٩٤٥م. شعر الطبىعة فى الأدب العربى. مصر: مكتبة الخانجى.